الفصل الخامس عشر

دولاب الحظ

وانتهكت حرمة المعبد، ونهب الذهب، وأكمل دولاب الحظ دورته، وانتشرت الأشواك والأعشاب ثانية فوق الأرض المقدسة.

جيبون ـ انحدار وسقوط الامبراطورية الرومانية.

عندما أصبح صلاح الدين وزيراً في مصر في آذار 1169 كان في سن الحادية والثلاثين، ولم يكن أحد يعلم عنه الكثير، وكان والده أيوب كردياً، وأحد ضباط نور الدين العسكريين، ولفترة من الوقت تولى حكم منطقة بعلبك، ونقل فيما بعد إلى بلاط دمشق حيث نشأ صلاح الدين وتثقف في أشهر وألمع مركز للتعليم الإسلامي خارج القاهرة، وقد ربي ليصبح مسلماً تقياً بل متعصباً، وتميز كثيراً كضابط شاب بمهارته في لعبة «البولو»، وكان مظهره لا يوحي بأي تعبير، كما لا يعطي أي إشارة عن رجل نادر وهام كما قدر له وكان، كان قصيراً ذا وجه متورد قليلاً، ويرى بعين واحدة، وورث صلاح الدين منصب عمل صعب للغاية كوزير في مصر بعد موت عمه، واستاء البلاط الفاطمي من حكمه، وتآمر سراً مع بلاط أمالرك في القدس لطرده، بينما عاد إلى سورية غاضباً، بعض إخوانه الضباط الذين كانوا أعلى منه في الخدمة وحتى في المكانة الاجتماعية، واستاؤوا من ترقيه إلى السلطة، ولو أن الإفرنج هاجموه بعد اعتلائه الوزارة لكان من الصعب جداً هزيمتهم[1].

---

(1) يلاحظ لجوء المؤلف إلى عبارة «لو» في كثير من الأحيان، علماً أنه لا وجود لهذه العبارة في التاريخ، فالتاريخ يسجل ما حصل لا ما يتمناه كاتب ما أو أي إنسان لو حصل.

ورغم أن الامبراطور مانوئيل والملك أمالرك أدركا بوضوح كاف، أنه مع وجود صلاح الدين في السلطة في مصر، وفي تحالفه مع نور الدين في سورية، فإن ميزان القوى بين الجانبين تبدل بشكل حاد، ولم يكن أمالرك مستعداً لمهاجمة مصر، ووافق مانويل على إرسال أسطول بيزنطي لحصار الساحل، ولمساندة الجيش الإفرنجي إذا غزا أمالرك مصر ثانية، وكانت قوات الإفرنج قد عانت كثيراً في الحملة الأخيرة، كما استغرقت وقتاً قبل تمكنها من مباشرة القتال، حتى كان شهر تشرين الأول أي بعد ستة أشهر من اعتلاء صلاح الدين السلطة في القاهرة، حيث زحف الجنود المسيحيون نحو الجنوب، أما الأسطول البيزنطي الذي كان في انتظار لفترة أسابيع في قبرص من أجل الإبحار، فكان يحرس جناحهم، وتوجهت هذه القوة الضخمة ماشرة إلى القلعة الضخمة التي كانت تحمي الفرع الرئيسي من النيل، أي إلى مدينة دمياط، وكان صلاح الدين يتوقع هجوماً آخر على بلبيس، ولذا فوجئ، وأخذ على حين غرة، لكن المدافعين عن دمياط نشروا سلاسل ضخمة عبر النيل لمنع الأسطول البيزنطي من الإبحار إلى الداخل، لكي يوقف الإمدادات المصرية من الوصول إلى المدينة من الجنوب كما كانت أسوار المدينة ضخمة جداً إلى درجة أن أمالرك تردد في الانقضاض عليها، أما صلاح الدين الذي لم يجرؤ على مغادرة القاهرة خوفاً من عصيان في المدينة، فقد أمر بحشد العديد من القوات قدر المستطاع لترسل في مساعدة مدينة دمياط، ومع مرور الأيام تعاظمت قوة الحامية أكثر فأكثر، واستمر قدوم الكثير من الرجال من الجنوب.

وفي أثناء ذلك عظم التوتر والخلف بين الإفرنج والبيزنطيين، وتعين على الأسطول أن ينتظر طويلاً حتى يستعد الجيش الذي استهلك كثيراً من الطعام الذي زود به قبل إبحاره من القسطنطينية، كما كانت قبرص غير قادرة على سد النقص عندما أبحرت أخيراً السفن إلى مصر، وبدأ البحارة يعانون من نقص المؤن والطعام، كما كانوا يتوقون بشكل موافق للقيام بهجوم على المدينة غير أن أمالرك استمر في رفض المخاطرة بأرواح رجاله في انقضاض حتى يستعد

لذلك، في حين كان يرفض في تجهم مساعدة حلفائه بإعطائهم بعض مؤن رجاله، واتهم بعض الإفرنج بغضب شديد البيزنطيين برغبتهم بالمشاركة في غنائم المدينة على حساب أرواح الإفرنج، وبعد مرور بعض الوقت توضحت الأمور أكثر، في أنه لا غنائم لأي منهم، فقد كانت المدينة قوية وأخفقت الحملة.

وفي كانون الثاني بدأت الأمطار بالهطول، وأصبح المعسكر مستنقعاً، وحان وقت العودة إلى الوطن، وبعد بضعة أيام من البرد والبؤس أحرق الجيش معدات الحصار، وسار نحو الشمال ليصل إلى عسقلان في حالة تعب وخوف في ليلة عيد الميلاد، ولم يأسف أحد لوداع البيزنطيين، كما لم يهتم أحد لوصول أنباء عن تعرضهم لنكبة حيث أصابت الأسطول عند ساحل فلسطين عاصفة رهيبة، فغرقت عدة سفن مع خسائر جسيمة في الأرواح، وخلال موسم عيد الميلاد ألقى اليم جثث البحارة الموتى على طول ساحل الأرض المقدسة، حيث افترستها الكلاب المسعورة وغزتها المجموعات المتنازعة من طيور النورس، لكن مما لا شك فيه أنها لم تجد فيها ما يكفي من غذاء لأنها كانت نحيفة جداً.

ونتج عن إخفاق الحملة كما هو متوقع اتهامات مضادة بين الجانبين، لكن الإفرنج والبيزنطيين، كانوا في حاجة إلى بعضهم البعض، ولذلك لم ينقض التحالف، وفي أثناء ذلك أزاح صلاح الدين كل معارضة لحكمه في مصر تماماً، ووطد نفسه هناك بشكل أمين إلى درجة أن نور الدين بدأ يقلق من النوايا المحتملة لضابطه المتفوق في القوة، وقام صلاح الدين بغارة أو أكثر ضد أهداف في الجزء الجنوبي من مملكة أمالرك ليظهر عداءه للعدو المشترك، كما تصرف في نواح أخرى أيضاً بانضباط كامل، ولكن نور الدين أصبح أكثر شكاً في نواياه، ففسدت العلاقات بينهما، ثم انصلحت لفترة، عندما وافق صلاح الدين على إبطال الدعوة للخليفة الفاطمي في مساجد مصر، وأحل

محلها الدعوة لصالح الخليفة في بغداد. وقد سر كثيراً عندما مات الخليفة الفاطمي بعد ذلك بقليل، وكان انتصار السنة على الشيعة أقرب دوماً إلى قلبه، وبدت بعد ذلك مؤكدة، ولم تمض فترة طويلة قبل أن تعود وتتنبه شكوكه، ففي سنة 1171 قام صلاح الدين بإحدى غاراته في الأراضي الصليبية وحاصر القلعة العظيمة في الكرك في الصحراء الصخرية الحارة جنوب البحر الميت، وقرر نور الدين أن يقدم لمساعدته، وسار جنوباً لينضم إليه، وحالما سمع صلاح الدين بقدومه رفع الحصار وعاد نحو الجنوب بحجة الذهاب لمساعدة أخيه الذي احتاج إلى نجدته في مصر العليا، واغتاظ نور الدين متهماً تابعه بالخيانة، وتنبه لذلك صلاح الدين، فدعا مستشاريه إلى جلسة وكان معظمهم في صالح التحدي والوقوف ضد نور الدين، غير أن والد صلاح الدين الذي كان مع ابنه في ذلك الوقت، أشار عليه القيام بالاعتذار المباشر، ووبخ ابنه للتفكير الكامل في العمل على العصيان، وتقبل صلاح الدين نصيحة والده، وترك نور الدين نفسه لفترة من الزمن لتهدأ، ولكن تكرر حدوث نفس الشيء تقريباً في السنة التالية عندما تقهقر صلاح الدين بسرعة حالما بدأ نور الدين هجوماً على الإفرنج في الشمال، ولم يعرف غضب الرجل الأكبر حدوداً له، ولم يعد يستطيع الشك في أن ضابطه المستقل تماماً كان ممتعضاً أن يرى دمار الإفرنج الذين يقعون بشكل ملائم بين سورية ومصر، وبالتالي كانوا يوفرون دولة فاصلة بينه وبين سيده الكثير المطالب.

وفي أثناء ذلك، كانت إحدى النتائج المفاجئة لدمار الخلافة الفاطمية ارتماء طائفة الحشيشة في أحضان الإفرنج، وكانت هذه الطائفة صغيرة لكنها مرعبة ومتمركزة في جبال النصيرية بين حماه والساحل السوري، والتي مارست أعمال الاغتيال السياسي لتزيد من حدودها وهي قريبة إلى الشيعة من حيث المبدأ والتعاطف أكثر منها إلى السنة في بغداد، وأذهلتهم أعمال صلاح الدين في مصر. وكان شيخها في ذلك الوقت رجلاً هاماً دعي راشد الدين سيان،

الذي أصبح يعرف بالنسبة للإفرنج فيما بعد بشيخ الجبل، وفي سنة 1173 كتب إلى أمالرك يقترح عقد حلف بينهما يعارض نور الدين وضابطه صلاح الدين في مصر، ووافق أمالرك مسروراً لاستقبال أية مساعدة في مواجهته لمصاعبه المتزايدة، ولكن فكرة قيام معاهدة مع الحشيشة أغضبت فرسان الداوية لسبب أناني وتافه فردياً، فقد كانت إحدى قرى الحشيشة تدفع ضريبة سنوية كأموال للحماية، وكانوا سيفقدونها إذا أصبح الحشيشة حلفاء لهم، ولذلك عزم المقدم الكبير للداوية على تحطيم اتفاق راشد الدين مع أمالرك. ونصب كميناً مع عدد من فرسان الداوية لمبعوثي راشد الدين حينما كانوا عائدين من الاجتماع مع ملك القدس وقتلهم، وغضب أمالرك إلى درجة أنه لم يسرع الحصانة ضد الاعتقال التي تمتع بها أعضاء الداوية، وألقى القبض على الرجل المسؤول بكل شدة وألقاه في السجن، حتى أنه أمل في سؤال البابا أن يحل جماعة الداوية مرة واحدة وإلى الأبد، واعتذر بكل تواضع إلى راشد الدين مؤكداً له أن المجرم قد لاقى عقابه، وتقبل هذا اعتذاره، وعادت الأمور إلى التحسن مرة ثانية، وفي الواقع لم تبد الاحتمالات السياسية في صالح المسيحيين لفترة طويلة، فهم قد ربحوا القليل، ولكنهم خافوا كثيراً من التحالف المسلم ضد الحشيشة، وبنشوء الخلاف بين نور الدين وصلاح الدين كان خصماهما الرئيسيان منهمكين جداً بخلافاتهما الشخصية، عن أن يتحدا ضد جيرانهما الإفرنج.

وأتت سنة 1174 بتغييرات جوهرية بالنسبة للعسكريين، حيث مات نور الدين في الربيع، كان موته خسارة عظيمة بالنسبة للمسلمين، الذين وحدهم في جبهة واحدة تقريباً ضد المسيحيين في الجهاد، فقد كان رجلاً عنيداً، نادراً ما يبتسم، وعندما تقدمت به السنون أصبح كثير الانعزال عن العالم في مراقبة واعتكاف ديني، ومع ذلك فقد احترمه ثائروه إلى حد كبير وبعمق، واعتبروه كالقديس، ولم يكن ثمة شك في أنه كان حاكماً عظيماً، وخلفه ابنه الصالح

الذي لم يتجاوز السنة الحادية عشرة من عمره. ونشأ صراع من أجل الوصاية، أدى بالعالم الإسلامي إلى الانغماس في التجزئة والفوضى اللتين لم تشاهدا لفترة سنين، ولم يكن أمالرك بالرجل الذي يضيع مثل تلك الفرصة الطيبة للهجوم على أعدائه، وزحف ضد مدينة بانياس جنوب دمشق، وقبل أن يصل إليها خرج حاكم المنطقة لملاقاته، وعرض إقامة حلف معه ضد صلاح الدين وأحرز أمالرك على الأرجح امتيازات أكبر، ولكنه لم يشعر بتحسن كبير، ووقع على الاتفاقية المقترحة بالسرعة الممكنة، وقفل عائداً إلى وطنه.

وفي وقت وصوله إلى القدس أصابه مرض الزحار، واستدعي بعض الأطباء المحليين وسألهم أن يفصدوه ولكنهم رفضوا. فقد كان ضعيفاً بحيث لا يمكنه أن يصمد لمثل تلك المعالجة كما أخبروه، ولذا دعا طبيباً فرنسياً لم يكن لديه مثل ذلك التردد والحيرة، فاستخرج له دمه بالحال بالعلق، وبعد بضعة أيام في 11 تموز 1174 مات، وكان دور الإفرنج هذه المرة في انغماسهم في شجار انقسامي كان يتبع موت كل ملك عادة، وسرعان ما ضاهت تجزئتهم تجزئة أعدائهم المسلمين، وخلف أمالرك الذي كان في الثامنة والثلاثين عندما مات، ابنته في الرابعة عشرة، وابناً أصغر منها بسنة، وعدة أخوات ما زلن صغيرات، ولم يكن هناك سؤال فيما يتعلق بمن سيخلفه، وتوج ابنه ذو الثلاثة عشرة ربيعاً كملك باسم بلدوين الرابع، بعد أقل من أسبوع من وفاة والده، ولكنه كان صغيراً جداً ليأخذ على عاتقه أمور السلطة، كما كان مصاباً بالجذام، واقتضى الأمر تعيين وصي على العرش، وكان إلحاحه إلى وصي سبباً دفع المملكة للانخراط في صراع حربي حاد. كان أشد وقعاً من موت أمالرك وأعظم ضرراً بالنسبة للصالح الصليبي.

واضطر الامبراطور مانويل سنة 1176، أن يحول انتباهه إلى الأتراك السلاجقة في الأناضول الذين كانوا يحكمهم سلطان له طموح كبير ومقدرة عظيمة وكان اسمه قلج أرسلان الذي كانت طموحاته مقيدة عندما كان نور الدين على قيد الحياة، لأن اقلائد السوري لم يكن لديه نية في تركه يتعاظم

قوة، ولكن حالما مات نور الدين بدأ قلج أرسلان هجومه على جيرانه الواحد بعد الآخر، مستوعباً ممتلكاتهم، وكان أخوه أحد ضحايا عدوانه، كما كان الأتراك الدانشمند منهم أيضاً، وسرعان ما أصبح مع ذلك الوقت أقوى حاكم تركي بين سورية وبحر الفوسفور، وأدى ذلك إلى اصطدامه مع البيزنطيين، ولخوفه على سلامة خطوة المواصلات خلال الأناضول قرر الإمبراطور البيزنطي تلقينه درساً، وحرك جيشاً كبيراً جداً، وانطلق ليهاجمه آخذاً معه قافلة من آلات الحصار الضخمة يقهر بها أية مدينة في الطريق تختار مقاومته، ورغم أن هذه المعدات الثقيلة أبطأت من سرعة خطواته في مسيره، إلا أنه اعتقد أنها ستكون ثمينة جداً فيما بعد في حملته.

وسار الامبراطور من القسطنطينية جنوباً حتى وصل نهر ميائدر ثم تحول إلى الداخل سيراً في وادي النهر، ثم التف حول بحيرة أغردير نحو الجنوب. وبدأ بالصعود البطيء على سلسلة جبال هائلة مشهورة باسم سلطان داغ قرب أنطاكية «البيسيدية»، والتفت الطريق بشكل مرهق صعوداً إلى ممر كان في السابق تحرسه قلعة المرزبان، وهي الآن أنقاض، حيث كان الجيش السلجوقي منتظراً على الطريق في صخور الجبل، وكانت الطريق ضيقة، وناشد مستشار ومانويل الأكثر خبرة الإمبراطور ألا يجتاز بجيشه المرهق ذلك المعبر حيث كان العدو ينتظر لينقض عليه، ولكن مستشاريه الأصغر والأقل حنكة اعتبروا مثل تلك النصيحة هزيمة وجبناً، وحثوا الإمبراطور وهم تواقون للمجد بتجاهل الأخطار والمتابعة في القتال، وسمح لنفسه بأن يقتنع، وتقدمت طليعة الجيش البيزنطي الكبير نحو الممر، وبدأت تشق طريقها خلال المعبر الضيق، وتراجع الأتراك أمامهم، وبدا أنه كما لو أن الأمور تسير على ما يرام، ولكن حالما لحق الجسم الرئيسي للجيش بطليعته المنتصرة كرّ الأتراك من الجانب، وهجموا عليهم من التلال المجاورة، وجبن الجنود البيزنطيون كثيراً إلى حد أنهم كانوا بصعوبة يتحركون، كما أدت آلات الحصار الثقيلة الضخمة إلى عدم القيام بأية محاولة مستحيلة التحقيق، وقيل إن الامبراطور كان أول من هلع

وفزع وربما كان ذلك، وسرعان ما تحول الجيش كله إلى حشد قتالي مؤلف من رجال فزعين يحاولون بيأس إنقاذ أنفسهم قدر الإمكان، غير أن القليل منهم استطاع القيام بذلك، واستمر الأتراك في تذبيحهم حتى غياب الشمس، فخيم الظلام الرحيم على الجثث والدماء هناك وفر مانويل مع بقية من جيشه، وبعد حلول الليل انضمت إليه الطليعة المنتصرة فكانت نتيجة ذلك تدمير الجيش البيزنطي الكبير تماماً مثلما حصل به تقريباً قبل قرن من الزمن في معركة منازكرد وأدت نكبة المرزبان بكل تأكيد إلى الدمار النهائي للإمبراطورية البيزنطية.

واستغرق وصول أبناء المعكة بعض الوقت لتصل إلى الإفرنج الذين لم يحزنوا أول الأمر بها على الإطلاق، فقد كانوا دوماً يكرهون البيزنطيين ويبغضونهم أما حقيقة أن الامبراطور المتغطرس جرى إذلاله. فقد أدت نوعاً ما إلى دهشتهم أكثر من إفزاعهم، ولم تكن سورية يحكمها غير غلام ليس أكثر، كما كانت إمبراطورية نور الدين غارقة في بحر الفوضى التامة، ولذا لم يكن لديهم ما يخافون منه من تلك الناحية. كما أن صلاح الدين لم يظهر بعد نفسه مروعاً بقدر ما أصبح فيما بعد، وبالنسبة لصلاح الدين نفسه، فعلى الأرجح أنه كان الرجل الوحيد الذي حقق تغييراً أساسياً معيناً أحدثه في توازن القوى، لقد أزال موت نور الدين الذي تلاه موت أمالرك أيضاً أكبر عقبتين في تحقيق طموحاته، كما أن دمار القوة العسكرية للامبراطورية البيزنطية في مريوسيفليوم قد ترك الإفرنج تحت رحمته، وفوق ذلك، كانوا في نزاع دائم مع بعضهم ومتجزئين إلى حد يبعث على اليأس، ولذلك في خريف سنة 1177 وبعد سنة من معركة المرزبان زحف صلاح الدين نحو الشمال، متصدراً جيشه في اتجاه عسقلان.

وكان بلدوين الرابع الابن المجذوم لأمالرك لا يزال في الخامسة عشرة، وقد مرض مؤخراً ايضاً، ولكن مع قدوم أخبار اقتراب صلاح الدين أسرع إلى

عسقلان مع كل القوات التي تمكن من حشدها، في حين كانت جماعة الداوية متمركزة في غزة، ووصل الملك بلدوين إلى عسقلان قبل صلاح الدين بمقدار ساعة أو ساعتين من الزمن تقريباً، ووصل صلاح الدين فترك قرب عسقلان قوة صغيرة خارج المدينة لاحتواء بلدوين وفرسانه، في حين استمر منطلقاً يريد القدس، وكانت العاصمة لا دفاع فيها، غير أن بلدوين تدبر أمره بطريقة ما بإرسال رسالة إلى جماعة فرسان الداوية في غزة يأمرهم بالانضمام إليه، وعندما اقترب المسلمون حاول بلدوين محاولة يائسة كسر الحصار على المدينة، والخروج رغم أن الموانع ضده كانت واسعة، وبشجاعة وحماسة أثارتها حدة حالة الطوارئ، نجح أخيراً، وانضم إلى قوات فرسان الداوية، وأخذ طريقه شمالاً بجهد قدر المستطاع قبل أن يتحول إلى الداخل لقطع الطريق على عبور صلاح الدين، وفي 25 تشرين الثاني كان يتقدم جيش صلاح الدين مطمئناً إلى أنه لا يوجد عدد يقف بينه وبين هدفه، وتقدم بكل إهمال، وعدم مبالاة على طول الطريق إلى القدس حتى كان قرب الرملة عندما انقض بلدوين وفرسانه كالصاعقة من جهة الشمال، لقد كان الهجوم غير متوقع على الإطلاق، حيث انطلق بعض رجال صلاح الدين يغزون بينما كان الباقون غير منظمين، وخفيفي التسلح، فانهزموا ولاذوا بالفرار تحت الوقع العنيف للهجوم المنظم لفرسان مدرعين بالفولاذ، وتفرقوا مثل قطيع من الخراف أمام مجموعة ذئاب متآزرة بإحكام، أما صلاح الدين نفسه فكاد ان يقع في الاسر، ولكن قلة أفضل قواته وأكثرها تمرساً احتفظت بمواقعها، وكانت الجائزة الوحيدة التي نالوها لقاء شجاعتهم هي تصفيتهم حتى آخر رجل تقريباً، أما بالنسبة للجانب المسيحي فقد أبلى الملك الشاب بنفسه بلاء حسناً في زحمة القتال، وكذلك فعل عضوان من عائلة إيبلين التي أصبحت أقوى القبائل في الممالك الصليبية وفي ذروة القتال قدم القديس جورج المساعدة وشوهد وعرف من قبل عدد من الأفراد المقاتلين كتفاً إلى كتف مع إخوانهم المسيحيين، وفر صلاح الدين مع

قلة من رجاله ووصل إلى مصر بعد رحلة رهيبة عبر صحراء سيناء، حيث تبلل ورجاله إلى جلودهم بأمطار الشتاء المتواصلة، كما لاقوا البؤس من برد الشتاء والهجمات المتكررة من قبل رجال البدو المعادين.

وسدد انتصار بلدوين ضربة مدمرة لسمعة صلاح الدين، ولكنه لم يغير شيئاً في ميزان القوى التي كانت ترجح بثقل لصالحه، ولم تمض فترة طويلة قبل أن يحشد جيشاً مصرياً آخر، ويكون مستعداً للقتال مرة أخرى، وفي أقل من سنتين بعد هزيمته على طريق القدس التقى ببلدوين وهزمه بعنف في وادي الأردن حيث كان يطارد المسيحيون بعض المسلمين، الذين كانوا يغيرون على ضواحي بيروت، وكان بين السجناء الذين أخذهم معه في تلك المناسبة المقدم الأكبر لجماعة الجاوية الذي مات بعد أسره، ولم يُتبع صلاح الدين نصره على بلدوين بهجوم عام ضده، رغم أنه استمر في مضايقته بإزعاجات مختلفة هنا وهناك وفي كل مكان، وعندما كان متوقعاً على الأقل ـ حتى أواخر صيف سنة 1180، عندما رتبت بين الطرفين ودامت سنتين. ووافق صلاح الدين عليها بسبب معاناة سورية كلها من آثار قحط رهيب في أوائل تلك السنة، فقد كانت المجاعة محتملة الوقوع، ومن الجنون المخاطرة في تدمير تلك المحاصيل الضئيلة بالاستمرار، في حرب سيكون فيها الهدف الرئيسي النسبة للطرف المعادي، أما بالنسبة لبلدوين فقد كانت الهدنة هبة مرسلة من الرب، واحتاج بشكل معوز للبحث عن المساعدة لدى أوروبا الغربية وبلاط الإمبراطور مانويل، لأنه دون إمدادات جديدة من وراء البحار، فإن قدر الممالك الصليبية سيختم عليه إلى النهاية، ورغم إرساله السفراء إلى الغرب لشرح مأزق المسيحيين في الشرق، فإن أحداً لم يرد على مناشدته من أجل المساعدة، فقد كانوا في شغل شاغل في قضاياهم وشؤونهم، كما أن الحماسة للقيام بالحملات الصليبية تضاءلت، وفي أثناء ذلك، انصرف البيزنطيون أيضاً إلى مشاكلهم الخاصة، وبدأت شؤون القسطنطينية بدؤها على وشك التحول إلى الأسوأ أيضاً.

ومرض الامبراطور مانويل لفترة من الزمن، ومات في 14 أيلول 1180، وقد اتبع سياسية ودية دوماً تجاه الغرب الذي كان يعجب به بإخلاص، وكان موته ضربة بالنسبة للإفرنج في الممالك الصليبية، رغم أنهم لم يقدروا دوماً صداقته، وخلفه ابنه وهو غلام في الحادية عشرة، واتخذ لقب أكسيوس الثاني كوفينوس، بينما تولت أم الغلام الإمبراطورة ماريا تلقائياً شؤون الوصاية، وكانت هذه الإمبراطورة ابنة ريموند صاحب أنطاكية الذي وضعت جمجمته في صندوق فضي وأرسل إلى الخليفة في بغداد، ولكونها أميرة غير لاتينية كرهها شعب القسطنطينية، كما وجه اللوم إليها بسبب سياسة زوجها الميالة للغرب التي كانت غير شعبية أكثر منها نفسها، وساد الامتعاض بشدة وعنف في فترة وصايتها، ولم ينس ـ سكان المدينة رعونة الصليبيين وأعمالهم الوحشية عندما عبروا خلال عاصمة العالم البيزنطي، كما كانت أعمال سلب جزيرة قبرص حية في ذاكرة كل شخص، وكان وجود مستعمرة صغيرة ولكنها موسرة من التجار الايطاليين الذين أعطوا امتيازات تجارية خاصة، وما بلغ مجموعه في الحي الاحتياطي من المدينة، شيئاً مثيراً باستمرار، ويذكر بالبرابرة الغربيين المكروهين الذين كان معظمهم من الجنويين والبيازنة والبنادقة، وكانوا يتصرفون بعجرفة عدوانية وغالباً ما كانوا يبدون للعيان بشكل مجموعات صغيرة من الناس المميزين عرقياً، يعيشون في بيئة معادية لهم، وقد اعتزلوا الناس، وتجنبوا أي احتكاك مع الشعب المحلي الذي كان يكرههم علناً.

وحالما أصبحت وصية، عمدت الامبراطورة ماريا أيضاً إلى معاداة سكان القسطنطينية بجعل فرد مغمور في عائلة كوفينوس دعي أيضاً ألكسيوس، مستشارها الخاص، وقال بعضهم عنه إنه عشيقها، وبعد فترة من الوقت كشفت مؤامرة لقتله وفر اثنان من الخونة من أجل الأمان إلى كنيسة أيا صوفيا حيث سعيا إلى الحرم هناك، ولكن ضحيتهما المستهدفة سحبتهما من المبنى، وألقت القبض عليهما، وكان عملاً يتصف بالعبادة إلى أقصى الحدود لأنه انتهاك

صارخ لحق قديم ومحترم جداً للرجال في الالتجاء إلى بيت الرب، وذهل سكان المدينة وغضبوا في أنه كان على ماريا أن تعتذر إلى المتهمين، وتتابع المزيد من المؤامرات. وبعد سنتين من موت مانويل قرب بعض المتآمرين فرداً آخر من الأسرة الحاكمة وهو أندرونيكوس كوفينوس، وطلبوا إليه أن ينقذ الإمبراطورية من الإمبراطورة اللاتينية البغضية وأكدوا له أنه ليس من أحد في العاصمة يقدم الدعم لها غير التجار الإيطاليين الآثمين وكان أندرونيكوس أميراً بيزنطياً وسيماً مغرماً بالعلاقات الغرامية، وقد أذهل إلى درجة عميقة الإفرنج قبل سنين عديدة بإغرائه الأميرة فيليبا صاحبة أنطاكية، وقد طرد خارج المدينة من قبل أخيها الساخط بوهيمند الثالث، ثم رحل جنوباً وفرض حصاراً على الملكة الشابة والأرملة حديثاً ثيودورا في القدس، واستولى على قلعة عفتها دون إبداء مقاومة من جانب السيدة نفسها، ومرة ثانية غضب أصدقاؤها وتأزمت علاقاتها مع الآخرين، ووافق أندرونيكوس على قيادة ثورة مسلحة ضد الإمبراطورة ماريا وابنها ألكسيوس الثاني، وفي أواخر صيف عام 1182 حشد جيشاً وزحف إلى القسطنطينية، وانتشرت أنباء قدومه كالنار في الهشيم خلال المدينة، وأطلقت انفجاراً عنيفاً من الكراهة ضد التجار الايطاليين، فلعدة سنوات كانوا يتيهون في الطرقات بوقاحة وحشية وبزهو مفرط، في حين كان البيزنطيون مضطرين لكظم استيائهم الشديد، ونفظ صبرهم فهاجموا أولئك الحمقى البرابرة القادمين من ايطاليا وذبحوهم عن آخرهم، ولم يكن الرعاع ينفذون القانون دائماً بأيديهم، ولكن عندما كانوا يفعلون ذلك كانوا يفعلونه بقسوة لا تصدق، وقد أذهلت بعض الأعمال التي مارسوها تجاه الايطاليين، قبل أن يموتوا، أذهلت العديد من أهالي القسطنطينية أنفسهم، ولكنهم لم يكونوا قادرين على أن يوقفوا سفك الدماء والقتل الجماعي، وإذا قيلت الحقيقة فإنهم على الأرجح كانوا مسرورين كالآخرين الذين رأوا مدينتهم قد نظفت من القادمين من إيطاليا، وحتى لو أنهم استهجنوا الأسلوب الوحشي الذي نفذ العمل به.

ودخل أندرونيكوس المدينة منتصراً بعد عدة أيام. وشرع بإفناء كل شخص ثبت أنه من منافسيه. ورمي بالوزير المحبوب في السجن حيث قلعت عيناه، ومات المتآمران اللذان عفت عنهما ماريا في ظروف غامضة، وأخيراً أجبر الغلام الصغير، ألكسيوس الثاني، على توقيع وثيقة الموافقة على إعدام أمه، وشنقت الإمبراطورة ماريا في جو هادئ. ثم جعل أندرونيكوس مشاركاً في الحكم للطفل البائس الذي أصبح يتيماً في ذلك الحين، وبعد شهرين تم قتل الغلام، وعندما تزوج أندرونيكوس أرملته البالغة من العمر اثنتا عشرة سنة، الأميرة أجنيس من فرنسا.

أصبح الحاكم غير المنازع في العالم البيزنطي، وهي الفترة الزمنية غير المنيرة من التاريخ البيزنطي.

وكان أندرونيكوس في الثانية والستين عندما تولى السلطة في القسطنطينية، ولعله كان قد بقي في أمان على العرش، لو أنه لم يكن رهيباً جداً ولما كان قد تخلص منه بعنف، فقد رأى منافسيه والمتمردين عليه في كل مكان، وأصبح مجنون اضطهاد أكثر فأكثر مع مرور الوقت، وأطلق العنان للحكم الارهابي الفعلي ليس في العاصمة فحسب، بل عبر طول واتساع الامبراطورية أيضاً، فكان يتم القاء القبض على الناس في أعداد كبيرة، حتى لم يعد أحد يشعر بالأمان، كما كان أفراد عائلة كومينوس في خطر مفرط، رغم أنهم عاشوا في حالة غموض عدة سنوات، فإن العديد منهم قد تم تنفيذ حكم الموت فيهم دون محاكمة، وحتى دون أي ادعاء للالتزام بالقانون، لا لشيء إلا لأنهم ببساطة كانوا من عائلة كومينوس، وأصبحت حالة أحدهم فظيعة جداً بالنسبة لمواطني القسطنطينية ليحتملوها، فنهضوا في ثورة مكشوفة وعنيفة واعتقل اسحق انجلوس ابن عم الامبراطور الرجل الغامض الكبير والطبع، ولكنه تدبر أمر فراره والتجأ إلى كنيسة أياصوفيا حيث منحه الأمان رجال الدين هناك، ولكن أندرونيكوس أمر رجاله باعتقاله مرة ثانية، وكان هذا فظيعاً جداً حتى أن رجال حرسه الخاصين هجروه، ونهضت المدينة ضده

أيضاً، واعتقله بعض رعاع المدينة عندما حاول الفرار إلى الخارج، ومرة أخرى أظهر سكان مدينة القسطنطينية مواهبهم وقدراتهم المغمورة النادرة في الوحشية والعنف، فحطموا أسنانه، ونتفوا لحيته وشعره وقلعوا احدى عينيه، وقطعوا احدى يديه، قبل تقييده إلى ظهر جمل أجرب، ووفق ما قال المؤرخ اليوناني المعاصر نيستياس: «ضربه بعضهم على رأسه بالعصي، بينما وضع بعضهم الآخر الروث في أنفه، وعصر آخرون أيضاً اسفنجاً مشبعاً بالغائط فوق وجهه، وبصق آخرون على أطرافه، وضربه آخرون بالحجارة، بينما أتت احدى المومسات بوعاء فيه ماء مغلي من مطبخ وأفرغته في وجهه، وقد تحمل كل ذلك بشجاعة لا تصدق دون اظهار أية علامة شكوى واحدة، رغم أنه كان يصلي باستمرار قائلاً: «أيها الرب ارحمني! لماذا تحطم القصبة المرضوضة؟» وأخيراً أخذ إلى مضمار السباق حيث علق من قدميه على عارضة، وأنفذ أحد الشهود سيفه داخل فمه وأقحمه بجهد كبير فيه ونحو الأعلى في رأسه فقتله، وخلفه كامبراطور الرجل الذي أغاظ اعتقاله الرعاع، وهو اسحق أنجلوس الذي برهن أنه غير مؤثر وغير كفء، وتوقفت الامبراطورية البيزنطية عن أن تكون قوة عالمية، فكان انهيارها كسباً سياسياً عظيماً بالنسبة لصلاح الدين كما كان أفضل جزء من الحظ لديه منذ موت نور الدين.

وبينما كان هذا يجري في العالم البيزنطي، انغمس الحكام الصغار من الإفرنج في بعض النزاعات العنيفة التي هددت في وقت واحد باغراقهم في حرب أهلية، ولم تتحسن شؤونهم بتحريرهم من الأسر الذي لا يمكن وصفه، الذي قام به رينالد أوف تشاتيلون الذي أزيح عن المسرح السياسي لفترة ستة عشر عاماً ربانياً بسبب ايداعه في سجن اسلامي في حلب، وكان حاكم المدينة قد أعطاه حريته في لحظة كرم عرفاناً لمساعدة تلقاها من جيرانه الإفرنج، وكانت زوجة رينالد الأميرة كونستانس قد توفيت خلال الأعوام التي قضاها في السجن، ولدى عودته تزوج من وريثة مقاطعة فيما وراء الأردن بعد أن ترك أنطاكية في أيدي ابنة المتبني يوهمند الثالث الذي ورث المدينة بعد موت أمه،

وضبط نفسه لفترة من الزمن، ولكن ممارسة أي كبح لنزواته وأمنياته الشخصية كان يناقض طبيعته، وقد اغتاظ تحت تأثير القيود التي فرضتها عليه الهدنة الموقعة مع صلاح الدين سنة 1180، ولعل ارجاء الحرب كان ضرورياً بالنسبة للصالح العام، وحتى في الحقيقة بالنسبة لبقاء اخوانه المسيحيين، ولكن يبدو أن مثل تلك الاعتبارات لم تخطر على بال رينالد، وكان أحد ضروط الهدنة أكد على وجوب استطاعة المسيحيين والمسلمين عبور بلدان الطرف الآخر بكل حرية ودون خوف من أي ازعاج، ولكن رؤية قوافل العرب الغنية تتحرك بحرية خلال أراضيه، كان شيئاً كثيراً بالنسبة لرينالد، فنصب سنة 1181 كميناً لزمرة من التجار في طريقهم إلى مكة، وجردهم من كل شيء كان لديهم، وبالمقابل أسر صلاح الدين زمرة من الحجيج المسيحيين في طريقهم إلى الأرض المقدسة، وأخبر الملك بلدوين أنه سيطلق سراحهم عندما يعيد رينالد البضائع المسروقة، ورفض رينالد مباشرة أن يقوم بعمل أي شيء فيه حماقة من هذا القبيل فكان قدوم الحرب شيء حتمي.

ورغم تفوقه في القوة أخفق صلاح الدين في بادئ الأمر في احراز أي كسب حاسم، وتلا ذلك في شهر كانون الأول وفاة ابن نور الدين «الصالح، وهو الثامنة عشرة بسبب ألم مغص الذي عزاه العديد من الأشخاص إلى السم، فحول صلاح الدين مباشرة كل انتباهه لفتح سورية بدلاً من إخضاع الإفرنج، وفي حزيران من السنة التالية أقصى جميع منافسيه عن السلطة، فدخل حلب منتصراً، وكسلطان على سورة ووزيرا لمصر امتدت امبراطوريته من رمال النيل الأعلى في الجنوب إلى سهل الفرات في الشمال ووجد الإفرنج أنفسهم لأول مرة محصورين بين جبهتين معاديتيهن متوحدتين، تحت قيادة حاكم واحد بدلاً من كونها مقسمة بشكل متهور بين خلفاء متنافسين.

ومن خلال استعادة الأحداث التاريخية الماضية، يمكن بسهولة كافية تحديد بعض النقاط والعلامات في تدهور حظ الإفرنج السياسي، في حين كان صلاح الدين يزداد قوة بعد قوة، وبلا شك أن اللحظة التي كسب فيها صلاح

الدين امبراطورية نور الدين كانت فترة منذرة، ومثقلة بالاحتمالات بالنسبة للممالك الصليبية، ولكن من الصعب جداً معرفة كيف كان شعورهم حول ذلك، ومن المسلم به أنهم استمروا في حياتهم، وفي بناء أبنيتهم، وحرث أراضيهم والزواج من نسائهم، وانجاب الأطفال، وإقامة شؤون معيشتهم، وفي شرابهم والصلاة ضد خلفية الخداع السياسي، ونشوب الحرب المؤقتة، وهو الحال بالنسبة للجانبين، كما لم يكن هناك وسائل للاعلام والاتصال حيث تنتشر الأخبار ببطء، فقد كانت ثمة فترات، وفي بعض الأحيان لعدة سنوات تكون خالية من الأحداث على المسرح السياسي، وخلالها كانت حياة تستمر بالشكل المسلم به يومياً دون التفكير في الاحتمالات العصبية لعهدهم، وفوق ذلك فان تلك الأزمنة التي كان تسودها الحياة العادية والسلام، كانت أيضاً مهملة من قبل المؤرخين، كما هي منسية من قبل أولئك الذين قرأوا أعمالهم، بالاضافة إلى أنها كانت غير ذات اهمية بالنسبة لمؤرخي الأحداث في ذلك الوقت، وإلى أبعد من ذلك أيضاً، لابد أن العديد من المواطنين المسيحيين العاديين في الممالك الصليبية، قد عانوا من هواجس الغضب الذي قدم إليهم، عندما وصلتهم الأنباء أن صلاح الدين قد وحد أعداءهم المسلمين، في مصر وسورية تحت قيادته.

ولم يخضع رينالد أوف تشاتيلون إلى أي نوع من تلك النذر والهواجس، بل شجعته الأخبار، لأن صلاح الدين كان منهمكاً في الشمال، ليثير الاضطرابات في الجنوب، ومن المشكوك فيه فيما إذا تمكن شخص ما من التفكير في شيء، هو ممكن أن يثير أعداء الإفرنج كالخطة التي وضعها قيد العمل، فقد بنى عدداً من السفن الصغيرة، ونقلها مفككة في شكل قطع على ظهور الجمال وحيوانات الجر الأخرى إلى رأس خليج العقبة، حيث هاجم ميناء ايلات واستولى عليه من أيدي حاميته المسلمة رغم صمود قلعة كانت على جزيرة بعيدة عن الشاطئ ضده. وبعد جمعه السفن هاجم المسلمين هناك، ثم أرسلها جنوباً مع أوامر بالإستيلاء على المدن الساحلية، وعلى سفن

التجار التي واجهوها، وبنهب قوافل الحجاج في الطريق إلى مكة، وأخيراً، بالهجوم على المدينة المقدسة نفسها، وتخلف مع الباقي لحصار قلعة الجزيرة، وتميز تقدم هذه الحملة القرصانية بنهب المدن الصغيرة الآمنة المسالمة، والهجوم على الحجاج العزل من أسلحة الدفاع وحرق السفن في الميناء وإغراق غيرها في البحر، وعندما انتشرت أخبار تلك الحوادث ذهل العالم الاسلامي، وبدأ حاكم مصر في الحال العمل على الانتقام لتلك الاهانة البربرية والحمقى تجاه الاسلام، وأصدر أوامره إلى البحرية المصرية بمعاقبة الأشخاص المسؤولين عن ذلك، وانطلق ضابط بحري برتبة أمير الماء دعي (بشكل غير مناسب وغريب بالنسبة للأذن الغربية) لؤلؤ في مطاردتهم، فأعاد الاستيلاء على ميناء إيلات، وطارد الأسطول المسيحي ودمره، وفر رينالد، ولكن جميع رجاله أسروا، وأخذ آخرون إلى مكة ليعدموا بشكل علني هناك، في حين قطعت رؤوس الباقين في القاهرة، وأقسم صلاح الدين قسماً عظيماً أنه سيجعل رينالد في يوم ما يدفع جزاء ما ارتكبه من الجرائم.

ولم يحدث شيء حتى أواخر صيف 1183 حين قام صلاح الدين بتحركه التالي، فجمع جيشاً قرب دمشق ثم خرج به نحو الجنوب، وغزا جبال الجليل بطولها، فأصاب الإفرنج خسائر بالغة، وقد ساءت صحة الملك بلدوين كثيراً إلى درجة أنه اضطر إلى مراقبة جسمه يموت ببطء، وكتب وليم الصوري حول ذلك يقول «كان جذامه حاداً بحيث أضعفه، ولم يعد جسمه يساعده، كما هجر الابصار عينيه، وبدأت يداه وقدماه بالتشقق»، ولذلك فإنه لم يعد بإمكانه أن يبقى حاكماً للمملكة والقيام بحاجاتها. ونتيجة لذلك، قرر أن يوكل السلطة إلى صهره وهو نبيل فرنسي دعي (غاي) أوف لوسيغنان وقد كان خياراً سيئاً للغاية.

وعندما اقترب صلاح الدين منهم، دعا الإفرنج كل رجل مقاتل في البلاد لحمل السلاح بما في ذلك بعض الزوار من أوربا، صدف وجودهم هناك في ذلك الوقت، ووضعوا جميعاً تحت أمرة غاي من أجل لقاء صلاح الدين،

وعندما التقى الجيشان برهن غاي على عدم لياقته وتردده الشديد إلى درجة أنه اتهم بالجبن، وعزل عن منصبه الجديد، وعاد بلدوين لاستلام القيادة مرة ثانية رغم صحته الضعيفة الميؤس منها، وعين ابن أخيه هو في السادسة من العمر كبلدوين آخر أيضاً وكوريثه النهائي، وأقرت هذه التنقلات السياسية من قبل النبلاء القياديين في المملكة.

ولم يشغل رينالد أوف تشاتيلون أي دور في كل ذلك، لأنه كان يحتل مكاناً آخر، وكانت السيدة التي تزوج بها بعد عودته من فترة طويلة من الأسر في حلب، وهي الوريثة لما وراء الأردن قد تزوجت قبل ذلك مرتين أيضاً. وفي وقت غزو صلاح الدين كانت تعد العدة لزواج ابنها الأكبر من زوجها الأول، وهو غلام كان في السابعة عشرة يدعى همفري أوف طورون من الأميرة الصغيرة إزابيلا صاحبة القدس التي لم تتجاوز الحادية عشرة. ونظراً إلى أن همفري كان الوريث النهائي لصاحبة ما وراء الأردن، فإن الزواج كان سيتم في أبهة، ووفق المراسم في قلعة الكرك العظيمة في الصحراء الشرقية من البحر الميت، وكان هذا المقر والحصن الذي خرج منه رينالد وأغار على قوافل الحجاج المسلمين التي ترتحل بين سورية ومصر، وحتى في وقت الهدنة التي لم تكن تعني بالنسبة إليه شيئاً، وهناك كان يعد وزوجته معه لاستضافة ضيوف الزفاف في أروع أبهة ممكنة، وقد بدأ في خلال شهر تشرين الثاني كله وصول الطبقة الغنية (الارستقراطية) الاقطاعية في الممالك الصليبية مع بعض الأمراء البيزنطيين والنبلاء الزائرين من أوروبا، بدأوا في القدوم إلى القلعة، وكذلك قدم حشد من المغنين والمضيفين والمشتركين في الحفل من كل الأنواع المتعددة، ولكن قبل أن يشرع في حفل الزفاف سمع انذاراً مفاجئاً. لقد تقدم صلاح الدين وجيشه من جهة الشمال.

ولم يكن لدى الضيوف وقت للمغادرة، ونجح رينالد فقط في النجاة بأمان والالتجاء إلى القلعة قبل أن يطوقها الحشد المسلم مثل موجة حول صخرة، وربما كان رجال ونساء العصور الصليبية قادرين على القيام بأعمال

وحشية، ولكن كان لديهم أيضاً احساس مدهش بتلك المناسبة، وعندما كانوا يرغبون في القيام بذلك كانوا يستيطعون التصرف بنوع من الرفعة المهيبة والشجاعة المتهورة التي تأخذ الأنفاس، وفي تلك المناسبة كان رد فعلهم لرؤية نيران معسكر صلاح الدين حول القلعة، وصوت القذائف من آلات حصادة تدل أسوارها في مشهد معنويات لا تقهر ولا مبالاة رائعة، واستمروا في الأعداد لحفلة الزفاف كما لو أنه لم يحدث أي شيء ذو أهمية، وكان الجنود المسلمون الذين كانوا يعسكرون في الصحراء حول الكرك ـ يستطيعون سماع صوت الحان وغناء كل ليلة، في حين كان ضيوف حفل الزفاف يأكلون من الموائد ويرقصون حتى الساعات الأولى من الصباح، وأرسلت أم العريس السيدة الوريثة لما وراء الأردن شخصياً بعض الأطباق من مائدتها إلى صلاح الدين، مرفقة برسالة تقول فيها أنها لو علمت أنه سيقدم لكانت أعدت شيئاً خاصاً جداً لضيف نبيل، وبشكل لم يتفوق عليه أحد، إستعلم صلاح الدين الذي كان بطبيعته رجلاً متسماً بالفروسية والكياسة عن الجزء الذي يسكنه الزوجان العروسان من القلعة. وأصدر أوامره بعدم قصفه، بينما استمرت آلات المنجنيق تقصف الصخور الكبيرة على الأجزاء الأخرى، واستمر واضطر حتى الرابع من كانون الأول عندما قدم بلدوين الرابع رغم مرضه محمولاً على محفة على رأس جيش القدس لتحرير إخوانه المسيحيين في الكرك، واضطر صلاح الدين إلى التراجع.

ويوضح حصار وتحرير الكرك أهمية القلاع في الصراع في تلك الأيام، وكان الصليبيون الأوائل بنائين مهرة للقلاع، ولكنهم لم يكونوا مهرة بقدر البيزنطيين، ومع مرور السنين تعلم الإفرنج في الممالك الصليبية قدراً كبيراً من فنون التحصين من المهندسين العسكريين للإمبراطورية-البيزنطية، وتنوعت القلاع المستقلة كثيراً في الحجم والقوة، وتدرجت من الحصون الضخمة مثل حصن الأكراد إلى أماكن أقل بعشر حجمها، وكانت قلعة حصن الأكراد في الجزء الشمالي من مقاطعة طرابلس، وتشرف على أراضي المسلمين هي من

المراكز الرئيسية لجماعة فرسان الاسبتارية، وقد دعاها العرب باسم حصن الأكراد، وحرفها الإفرنج أول الأمر لتصبح: لكرات. ثم بتعديل بسيط إلى كيراك ثم كرك التي صارت تعني[1] قلعة. وبسبب امتلاك فرسان الاسبتارية لها اصبحت كرك الفرسان، وقد قال عنها ت. س. ر. بوس وهو باحث من جامعة اكسفورد ومؤرخ للفنون: وكما البارثنون بالنسبة إلى المعابد الاغريقية، وتشارترز بالنسبة للكاتدرائيات الغوطية فإن كرك الفرسان هي في الأهمية بالنسبة لقلاع العصور الوسطى، مثال رفيع، واحدى أعظم المباني في زمانها» ويوضح موقعها دوافع بنائي القلاع في ذلك العصر، حيث تقع على طرف تلة منحدرة على ارتفاعها 2,300 قدم، وتشرف على امتدادات واسعة من بلاد المسلمين في أيام الفرسان، وقد تمت السيطرة عليها تماماً، وكتب الرحالة المسلم ابن جبير عندما زار حمص: روما ظنك ببلد حصن الاكراد منه على أميال يسيرة، وهو معقل العدو، فهو منه تتراءى ناره، ويحرق إذ يطير شراره، ويتعهد إذا كل يوم مغارة» ودعاها مؤرخ آخر مسلم وهو ابن الأثير غصه في حنجرة المسلمين بينما وصفها المسيحي اندرو أوف هنغاريا «مفتاح إلى الأراضي المقدسة»، فهي تستطيع الاتساع لألف حصان، وخمسة آلاف رجل، ومع ذلك فقد استسلمت أخيراً للسلطان بيبرس المملوكي، ولم تكن تؤخذ بالقوة لأنها قوية جداً، كمل لم يكن ثمة غازٍ على علم بأنه بامكان جيش العسكرة داخل أسواها وأبراجها المنيعة ويجرؤ على ممارسة الضغط على الأراضي المعادية ويتك قوة كهذه خلفه، ورغم أن الكرك كانت أضخم قلاع الصليبيين فإن القلاع قد رصعت كل أراضي الصليبيين وأمسكت جميعها بذرا الأرض من حدود سورية في الشمال إلى الصحارى جنوب البحر الميت، فكانت بعضها الآخر قلاعاً بارونية صغيرة،

(1) كذا وهو غير مقبول، فأهالي بلاد الشام هم أساتذة التاريخ في فنون البناء، خاصة العسكري منها، يضاف إلى هذا أن عبارة «كرك» هي عبارة سريانية تعني حصن، وبالتالي لا علاقة لأصل هذه العبارة بالفرنجة.

وبعضها هائلة وواسعة مثل الكرك نفسها. ونادراً ما كانت تبتعد عن بعضها أكثر من مسافة مسيرة يوم، وكان بإمكان العديد منها وهي تقف مثل المخافر في البذراً العالمية والقمم الصخرية التلالية أن تنذر بعضها البعض باستعمال الاشارات في الليل، كما كانت مزودة بأحواض لتخزين الماء وأنفاق أو سراديب تذهب بعيداً في باطن الأرض إلى الينابيع الخفية، أو صهاريج محفورة في الصخور، وكان بإمكان بعضها الصمود لحصار يدوم سنة أو أكثر، فقلعة الشوبك الضخمة عند الحافة الشمالية للصحراء العربية وأيضاً الكرك، لم تسقطا حتى حوصرنا لفترة سنة ونصف السنة، وبعد أن فقد نصف رجالهما عيونهم لفقرهم إلى الملح أو هكذا قيل في ذلك الوقت، وتزود هذه القلاع بنظام دفاعي في العمق الذي نادراً ما كان تضاهيه القوة والاستعداد، والتي مكنت الإفرنج حينما كانوا محاطين بالمسلمين الذين تفوقوا عليهم في العدد من البقاء لفترة قرنين من الزمن.

وبعد أن رفع صلاح الدين الحصار عن الكرك أصبح القتال متفرقاً ومتشتتاً. فكانت هناك غارات وغارات مضادة، وعندما حاول صلاح الدين أخذ الكرك مرة ثانية في الخريف التالي برهنت أنها منيعة جداً بالنسبة له، وفي ربيع سنة 1185 مات بلدوين أخيراً عن عمر يناهز الرابعة والعشرين، وكان مرضه الجذام قد أنهكه تماماً إلى درجة لم يبق منه شيء ليدفن في الأرض، كما كان تابعوه يعانون أيضاً من بدايات المجاعة وشحت الأمطار في ذلك الشتاء، فكان من الضروري بالنسبة للمسيحيين القيام بعقد سلام. ومن حسن الحظ كان لدى صلاح الدين بعض المشكلات في سورية ومصر، وظهرت أقاويل من الحسد بين بعض تابعيه كما كان أمير الموصل يهدد بالتمرد، ولذا وافق على هدنة مدتها أربع سنوات مع الإفرنج. أما من جهتهم فقد عقدوا السلام معه بشكل ملؤه الشكر.

وعادت ببطء حالة الازدهار إلى الممالك الصليبية، وتجنبت المجاعة المهددة عندما تدفق الطعام إليها من البلاد الاسلامية المجاورة التي كان

تجارها تواقين لتجديد تجارتهم مع جيرانهم المسيحيين، وعبرهم إلى أوروبا، وحتى أنها تطلعت إلى بعض الأيام الذهبية كما لو أن السلام يمكن أن يكون دائماً، فقد أصيب صلاح الدين بمرض على نحو خطير، وظن الإفرنج أنه سيموت، ولكن حظهم انتهى وانكشف، وعلى النقيض خلف بلدوين الرابع ابن أخيه في الثامنة من العمر في ربيع 1185، وتوج الغلام الصغير كبلدوين الخامس، ولكنه مات بعد عدة أشهر من جلوسه على العرش في صيف 1186، ومع الحتمية المحزنة لعهد تال مظلم تلا موت الملك الصغير نزاع عنيف بين النبلاء والإفرنج القياديين، وقاربت الحرب الأهلية تغمر دنياهم، ولحسن الحظ بالنسبة لمن يهمه الأمر، تمسك صلاح الدين بالهدنة ولم يقم بعمل ما لخرقها، وبعد تجرع مرارة الوضع، توجت أخت بلدوين الرابع سيبيلا ملكة على القدس، وتوج زوجها غير المشهور غاي من لسيغنان بإسم الملك غاي معها، وعندئذ قرر الزوجان الملكان عدم القيام بعمل من شأنه تعريض السلام للخطر، ولم يدخلا في حسابهما رينالد أوف تشاتيلون (أرناط).

ومرة أخرى، بدأت التجارة بين مصر وسورية فكان التجار المسلمون ينتقلون بحرية عبر الأراضي الأفرنجية تحت حماية شروط الهدنة، ولكن منظر عبور الأموال عبر تلك الأراضي كان شيئاً كثيراً بالنسبة لاقطاعي منطقة ما وراء الأردن، ففي أوائل سنة 1187 هاجم قافلة كبيرة كانت مرتحلة من القاهرة إلى دمشق ترافقها مجموعة جنود مصريين للدفاع عنها من غارات البدو، فقتل الجنود المصريون بسرعة وسهولة. وأخذ رينالد التجار ونساءهم وأطفالهم إلى قلعته في الكرك حيث احتفظ بهم من أجل الفدية، وقد سر رينالد كثيراً بالغنائم لأنها كانت كبيرة. وعندما أخبر صلاح الدين بما حدث أرسل مبعوثيه إلى الكرك للمطالبة باطلاق سراح الأسرى، ودفع التعويض المناسب للخسائر التي تكبدوها ولكن رينالد رفض أيضاً استقبال الرسل، فاضطر للذهاب إلى القدس لوضع شكواهم أمام الملك غاي، الذي حاول حمل رينالد على القيام بما طلبه صلاح الدين، ولكن رينالد لم يهتم له كما لم يهتم برسل صلاح الدين، ولم

يعزز غاي أمره فقد كان رجلاً متردداً، كم لم يستطيع صلاح الدين تحمل الأمر أكثر من ذلك وتحتم القيام بحرب تالية.

وربما لم يصل الأمر إلى أسوأ اللحظات بالنسبة للمسيحيين الذين كانوا متجزئين إلى أقصى الحدود وقليلي العدد بشكل مقنط فحسب، بل كان أمير أنطاكية، وكونت طرابلس فزعين جداً من عدم اللامبالاة من جانب رينالد إلى حد أنهما رفضا أول الأمر القيام بعمل ما في حرب سببها خرق رينالد للهدنة، وتركت مملكة القدس تواجه وحدها قوة العالم الاسلامي، ولكنهما غيرا أفكارهما فيما بعد، ومع ذلك، وبعد أن حشد المسيحيون كل رجل قادر في جيش بقوة ثمانية عشر ألف رجل، بقوا ضعافاً أكثر من صلاح الدين، رغم أن جيشهم كان بضخامة جيشه تقريباً لم يتمكنوا من وضع أكثر من اثني عشر ألف فارس ثقيلي التسليح وأربعة آلاف فارس بتسليح خفيف، وكان تحت امرة صلاح الدين اثنا عشر ألف رجل فارس العديد منهم أكراد مثله[1].

وعبر هذا الحشد الاسلامي الأردن في الأول من تموز 1187 عند نقطة جنوب بحيرة طبرية، وهاجم مدينة طبرية فسقطت في الحال، وصمدت القلعة فيها حيث دافعت عنها حامية صغيرة، وكانت فيها كونتة طرابلس زوجة ريمون صاحب طرابلس الذي كان في جيش عكا، وقبل أن تصل أنباء استيلاء صلاح الدين على المدينة إلى عكا، كان هناك جدل حام بين القادة المجتمعين هناك، فقد كان كونت طرابلس في صالح الدور السلبي الدفاعي بالنسبة للمسيحيين على أساس أن الجيش الذي قام بالمسير والهجوم في الحرارة الشديدة للصيف سيكون في وضع غير موات، ولذلك تعين على الإفرنج الانتظار حتى يضطر صلاح الدين إلى التقهقر تحت وطأة افتقاره إلى الماء والمؤن، ولن يكون قادراً

(1) كذا ويحسن العودة إلى كتاب حطين ـ مسيرة التحرير من دمشق إلى القدس ـ تأليف د. سهيل زكار. ط. دمشق 1984.

على الاحتفاظ بجيش ضخم لفترة طويلة في حرارة وغبار الصيف الفلسطيني، ووافق أغلب الناس على فكرة ريموند، ولكن رينالد أوف تشاتيلون اتهمه بالجبن، وأيده المقدم الأكبر للداوية في وجوب خروجهم لملاقاة المسلمين، وتناقشوا من جديد ولم يدرسوا الوضع الدفاعي على نحو هادئ. ووافق الملك غاي الذ كان يكره ريموند، وأصدرت الأوامر اللازمة لذلك، وفي المساء التالي، 2 تموز وصل الجيش الصفورية في منتصف الطريق إلى طبريا، وعسكر هناك حيث كانت كمية وافرة من الماء، وأصبح وضع الفرنجة قوياً، فلو هاجم صلاح الدين فسيبذلون أفضل جهودهم في المعركة التالية، وفي تلك المرحلة وصلت رسالة من كونتة طرابلس حاملة أخبار الحوادث في طبرية. ونشأ مرة أخرى جدال حاد، وحاول ريموند مرة أخرى أن يجادل بقوة لصالح البقاء حيث كانوا، وأن المسير خلال تلال الجليل في حرارة تموز خدم مباشرة عدوهم صلاح الدين، بينما يعود عليهم بالضرر، وكالسابق، وافق معظم الناس على فكرة ريموند، وتم القرار على البقاء في وضع دفاعي في الصفورة، غير أن المقدم الأكبر للداوية تحدث سراً إلى الملك المتردد دوماً بعد حلول الظلام، وأقنعه بالعدول عن الفكرة.

كان اليوم التالي حاراً وعديم الرياح، وانطلق المسيحيون قبل الفجر، ولكن قبل منتصف النهار بدأ الرجال والخيول يكابدون مشقة الحرارة والعطش بشكل مروع، وكان الأفق مصفراً، وليس ثمة ظلال فوق تلال الجليل الجرداء التي كانت صخورها حارة الملمس، كما غطى هباب الغبار أرجل الرجال عدا أولئك في المقدمة، وفي أثناء ذلك، صب المناوشون المسلمون سهامهم على صفوف وأرتال المسيحيين، عامدين إلى الفرار قبل أن نتمكن ضحاياهم من الانتقام، وبعد الظهر وصل الجيش تلة صخرية ذات قمتين توأمتين تعرف «بقرني حطين» حيث قرر غاي أن يعكسر في تلك الليلة، وناشده بعض الفرسان الاستمرار في المسير حتى بحيرة طبرية على مسافة أميال من المكان، . لكنه

رفض وعندما سمع ريموند بقراره هتف قائلاً: «يا رب خسرنا المعركة واننا ميتون» وبين أن البئر التي عسكر حولها الجيش جافة، وقال مؤرخ أحداث مسلم عن الليلة التي تلت «وهيئت دركات النيران، وهنئت درجات الجنان، وانتظر مالك، واستبشر رضوان».

وعندما استيقظ المسيحيون في الصباح، وجدوا أنفسهم محاصرين تماماً بجيش صلاح الدين، وأضرم بعض المسلمين النار في الأعشاب الخفيفة اليابسة على جانب التلة، وكانت تهب الرياح فتحمل معها الدخان إلى عيون الإفرنج فتعميهم وتخنقهم، ولم يكن لديهم فكرة غير فكرة واحدة كانت عن الماء، فشنوا هجوماً على أعدائهم في محاولة لخرق صفوفهم والوصول إلى البحيرة التي كان بإمكانهم رؤيتها عن بعد إلى الأسفل، ورغم عنفوانهم وحيوتهم في التحرك إلى مسافة خمسة أميال، إلا أن جنود صلاح الدين وألسنة النيران دفعتهم للرجوع، وقتل العديد منهم، وكالعادة قاتل الفرسان بكل ما أوتوا من الشجاعة التي لا تصدق في هجوم بعد آخر على فرسان الأعداء مكبدين أفدح الخسائر في الجانب الكردي، وعندما استمر القتال خلال الصباح كله دون إرجاء أو تأجيل لحظة واحدة ارتفعت الشمس في كبد السماء الزرقاء في منتصف صيف ناري في فلسطين، ملقية بحرارتها إلى الدروع الثقيلة، حتى أصبح الفولاذ ساخناً لا يحمل كما أرهقتهم الحرارة، فقتل أو أسر العديد من قوة المشاة، وتبعثرت جثث القتلة فوق الأرض، واضطجع الجرحى بشفاهم وألسنتهم المنفخة التي تحولت إلى سمرة من العطش يرجون أن يموتوا، وكان واضحاً أنه لم يكن ثمة وقت كثير يسمح بقلب الحال في المعركة، إذا كان في الواقع في الإمكان تحويل ذلك، ولذلك أمر الملك غاي، ريموند صاحب طرابلس بقيادة فرسانه في محال أخيرة للخرق، فنزلوا التلة مثل انتقام الرب في هجمه مرعبة، وأفسح العدو طريقاً أمامهم وفتحوا بين صفوفهم وتسربوا منها، ولكن حالما عبر الإفرنج أغلق المسلمون صفوفهم مرة أخرى، ووجد الفرسان أنفسهم غير قادرين على الانضمام إلى إخوانهم

المسيحيين، ولم يكن ثمة شيء في امكانهم أن يقوموا به غير الفرار بحزن من المعركة، وبعد فترة أخرى خرقت مجموعة من الفرسان أيضاً، وكان آخر في الفرار فقد قربت النهاية إلى البقية الباقية.

وعندما قربت النهاية وجد جنود صلاح الدين، الملك غاي فوق قمة تلة قرني حطين محاطاً بفرسانه الذين لم يقوموا بالخرق للخروج مع ريموند صاحب طرابلس أو قتلوا، وكان معظمهم مستلقياً على الأرض دو حراك أو منكب على وجهه، بينما كان بعضهم قتلى وآخرون جرحى والباقون منهكين جداً إلى درجة لا يستطيعون فيها الحراك، وسيق الملك ونبلاؤه القياديون بما فيهم رينالد أوف تشاتيلون والراعي الأكبر للكنيسة إلى خيمة ضربت فوق ساحة القتال لصلاح الدين، فاستقبلهم صلاح الدين بلطافته المعتادة، ودعا الملك غاي للجلوس إلى جانبه، ولما رأى عطشه أعطاه وعاء ماء بارد، وبامتنان وشكر تناول الملك الوعاء وشرب منه، وعندما كان على وشك تسليمه إلى رينالد أوف تشاتيلون، قال صلاح الدين لمترجمه: «ذكر الملك أنه لم أكن أنا بل هو الذي أعطى الاناء لذلك الرجل»، لأن عادة مشاركة الطعام والشراب مع سجين، كانت تعني انقاذ حياته، وبعد دقيقة أو دقيقتين تحول صلاح إلى رينالد ووجه إليه التهمة بعدد من الجرائم، ولكن رينالد كان فظاً غير خجول ورد عليه بصوت عال وبوقاحة، فكان هذا كثيراً جداً بالنسبة لصلاح الدين، فجرد سيفه وقطع رأسه، ووصف مؤرخ أحداث عربي ما حدث بعد ذلك. فقد كان الملك غاي متوقعاً أن يكون القتيل التالي، واقشعرت أطرافه، ولكن السلطان هدأ من روعه وقال له: «لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك، أما هذا فإنه تجاوز حده».

كانت معركة حطين نكبة لا مثيل لها بالنسبة للمسيحيين في الممالك الصليبية فقد هزم جيشهم، ولم يترك من الرجال المقاتلين غير أولئك المنتشرين فوق الأرض في الحاميات وفي المدن والقلاع، وبدأ صلاح الدين يطهر البلاد من بقاياهم بشكل منهجي، وفي أوقات الفراغ. وفي هذه العملية أسر العديد

من الصليبيين إلى درجة أنهم أصبحوا فيضاً في أسواق النخاسة في العالم الاسلامي. وكانت قيمتهم التجارية تهبط إلى مستوى منخفض. حتى أن رجلاً قايض رقيقاً منهم لقاء زوج من الأحذية، واستسلمت مدن وقرى الممالك الصليبية الواحدة بعد الأخرى إلى السلطان المنتصر، وكانت طبرية أولاها وتلتها عكا ونابلس ويافا. أما صور حيث التجأ معظم أولئك الذين نجوا من حطين، فقد صمدت لهجومه الأول على أسوارها العظيمة، وظن أنها غير جديرة بضياع أرواح عديدة لاخضاعها، وبدلاً عن ذلك مر بها إلى صيدا التي استسلمت على الفور، وسرعان ما لحقت بها بيروت، أما مسيحيو القدس فلم يفتحوا بوابات المدينة التي مات فيها المسيح للمسلمين، واضطر صلاح الدين لفرض الحصار عليها، وقد دام الدفاع أقل من أسبوعين حتى الثاني من تشرين الأول 1187 أمام قواته التي أضعفتها واحتلتها، لكن لم تكن هناك مذبحة لأن صلاح الدين أصدر أوامره الصارمة بعدم مضايقة المسيحيين، وأطيع في ذلك تماماً، وقد أفسح لهم المجال ليفتدوا أنفسهم بدفع مبالغ مالية متفاوتة لقاء أسراهم: فللرجل عشرة دنانير، وخمسة للمرأة، وواحد للطفل، رغم أن العديد منهم كانوا فقراء، ولم يثبتوا مقدرتهم على الافتداء، غير أن صلاح الدين برهن عن كونه منتصراً كريماً، حيث أطلق سراح العديد من أولئك دون فدية.

وفي الخريف قدمت الأمطار، فسرح صلاح الدين قسماً من جيشه، وأعاد الرجال إلى أوطانهم ومزارعهم، وعاد الشرق مرة أخرى اسلامياً، لقد انتقم للهزائم المروعة التي سددها الصليبيون للاسلام، وذلك بالتصرف العدل والانسانية والكرم، وجعله ذلك ينال شرف النصر المعنوي الذي كان أكثر أهمية من نصره العسكري، فقد كان الاسلام قد دخله لعدة قرون الفساد بالابتزاز غير المشروع والأنانية والكذب، ونوع من اساءة الحكم والاجرام التي دمرت الدولة الفاطمية في مصر، والتي أصبح لديها الآن قائد برهن بنفسه أنه أهل ثقة تماماً، وأنه الرجل الذي لم يعرف عنه أنه نقض عهده لصديق أو

عدو، وكان ذلك شيئاً غير عادي في معايير ذلك العصر، وقارب أن يكون غير مصدق حيث فاز باحترام هائل بين اخوانه المسلمين وبين خصومه المسيحيين، وإذا كان قد فاز باعجاب العالم ورد الأراضي الاسلامية إلى الاسلام، فإنه لم يكسب أخيراً الفوز في الصراع مع الإفرنج، لأنهم تدبروا أمرهم في التمسك بثلاث مدن، وخمس قلاع ضخمة، وصمدت صور وأنطاكية وطرابلس ضده، وكذلك فعلت شقيف أرنون والقصر الأبيض (صافيتا) والمرقب وطرطوس وحصن الأكراد، وقد أعطت تلك المواقع المسيحيين موطئ قدم أو موطئين فوق الأراضي في الشرق، واعتبرها صلاح الدين على الأرجح غير هامة، فسيكون قادراً أن يتعامل معها فيما بعد، عندما يختار أن يقوم بذلك، غير أن التاريخ برهن خطأ ذلك.